القصور المنهجي للعلوم التركيبية

Methodological shortcomings of synthetic sciences

أحمد فلاق
جامعة تامنغست
fellag.ahmed@univ-tam.dz

ملخص

تحاول هذه الدراسة إبراز أهمية المنهج في تشكل أي علم من العلوم وكيف أن عملية استعارة المنهج تنقل العلم الجديد من مساحة التميز إلى مساحة النقل وبالتالي الانحصار في التركيب بدل الغوص في المكون الأصيل وهو ما سيجعل كل ما يطرح سطحيا للغاية.

الكلمات المفتاحية : المنهج - العلوم التركيبية - القصور المنهجي.

Abstract:

This study attempts to highlight the importance of methodology in the formation of any science, and how the process of borrowing methodology moves the new science from the space of distinction to the space of transfer, thus becoming confined to synthesis instead of delving into the original component, which will make everything presented extremely superficial.

Keywords: Methodology - Synthetic Sciences - Methodological Deficiencies.



رقمنة
مجلة الدراسات الإعلامية والاتصالية

المجلد 06 | العدد 01
جوان 2026
الصفحات 66 - 72

ردمد | ISSN-2773-4285
EISSN | 2830-8417
الإيداع القانوني | 07/2021
العنوان | 11، طريق دودو مختار، بن عكنون، الجزائر العاصمة.
الفاكس | 50 88 23 (023)
الهاتف | 75 29 62 (0561)

تاريخ الاستلام 2026/06/11
تاريخ القبول 2026/06/28
تاريخ النشر 2026/06/30

المؤلف المرسل |
أحمد فلاق
Fellag72ahmed@yahoo.fr

1. مقدمة:

تستهدف الورقة مشاركة بعض الأفكار العلمية غير التقليدية بخصوص منهجية البحث. هذه الأفكار ستحاول الخروج من النظرة التقليدية غير المؤسسة علميا والمنبنية أساسا على تراكمات ممارساتية خاطئة، مع إبراز أهمية الدقة في عملية توصيف الإجراءات البحثية، وانعكاس هذه الدقة على نظرتنا إلى البحث في حد ذاته.

بعض هذه الأفكار قد يخرج عن المألوف وقد يشكل صدمة لدى البعض، لأنها قد تهدم تصورات تشكلت من سنوات من المطالعات العلمية وربما الممارسات البحثية. والمقصود بالهدم ليس تبيان خطأ ما هو قائم بقدر ما هو إبراز قصوره واستحالة الاعتماد عليه.
سنحاول تقديم هذه الأفكار من خلال طرح أسئلة بسيطة وتبيان أن الإجابة عليها أبعد من أن تكون بسيطة أو سهلة. بمعنى إبراز المفارقة الموجودة بين الاستفسار الهين والإجابة المستعصية.

2. متى يستقل العلم عن علم آخر؟:

يفرض هذا السؤال نفسه بشدة. فالعلوم انتقلت من مرحلة التداخل إلى مرحلة التمايز عبر مختلف محطاتها التاريخية، لكنها تعود في الزمن الحاضر مجددا إلى فكرة التداخل بعد أن وصلت مرحلة أثبتت أن التعامل مع العلوم من منظور واحد أو زاوية واحدة قد لا يعطي النتائج المرجوة ويخلق نوعا من المحدودية في التعامل مع الظواهر ذات الأبعاد المتعددة.

الإجابة التقليدية عن السؤال المطروح هي أن العلم يُستقلّ عن علوم أخرى عندما تتوفر له موضوعية محددة، مفاهيم وخصوصا مناهج ومصادر وأدوات استدلال خاصة به، وإنتاج معرفي (مباحث ومشكلات) لا يُفسَّر كليًّا بواسطة العلوم الأصلية. ويمكن أن ندقق أكثر من خلال تحديد العوامل التالية في الاستقلالية:

- موضوع مستقل: وجود موضوع بحثي واضح ومميَّز لا يغطيه العلم الأصلي بالكامل.
- مرجِعيات ومفاهيم خاصة: ظهور مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي لا تُستبدل بسهولة بتعابير من العلوم الأخرى.
- منهج بحثي مميز: استخدام طرق تحليل أو تجريب أو استدلال خاصة (كمناهج تجريبية أو قياسية أو تأويلية تختلف عن مناهج العلوم الأم")
- أدوات قياس أو تقنيات بحث خاصة: أدوات تجريبية أو إحصائية أو تقنية تُستعمل بشكل نظامي داخل ذلك العلم.
- فاعلية تطبيقية أو مشكلات مميزة: وجود مشكلات عملية أو تطبيقية تتطلب حلولا يقدّمها ذلك العلم تحديدًا.
- إنتاج علمي مؤسسي: ظهور مؤسسات تعليمية، مجلات علمية، وخطاب أكاديمي مستقل يُدرَّس ويُبحث بذاته.
- قبول المجتمع الأكاديمي: اعتراف مختصين وباحثين بأن الميدان يستحق وضعًا مستقلاً (تقنينه كتخصص في الجامعات، وجود أقسام ومؤتمرات خاصة")

على هذا تعد مسألة الاستقلالية هاجسا معرفيا مرتبطا بالأساس بالرغبة في تناول ظواهر محددة وسحبها من الإطار العام للعلم المستقَل عنه، وبمنهجية وأدوات قد تتقاطع مع الأدوات التقليدية لكن تزيد عنها بمناهجها الخاصة التي تمنحها الخصوصية.

بيد أن المنهج هو الأساس الذي يصنع التمايز، فالمنهج هو الذي يبرز الطرق الخاصة للعلم المستقل وكيفية تعامله المتفرد مع الظاهرة. لهذا قد يعد المنهج أحد العوامل الأكثر أهمية في تأكيد الاستقلالية، طالما أن عامل الموضوع قد يكون مشتركا.

3. ما أهمية المنهج في العلم ؟:

في كتابه "مقال عن المنهج" اعتنى ديكارت كثيرا بالمنهج أو الطريقة الواجب اتباعها لبلوغ المعرفة الحقة. وحاول في كتابه توجيه العقل والباحثين إلى الحقيقة في العلم، وقد أرجع سبب تأخر العلم في عصره إلى عدم اتباعه منهجا واضحا.

يقول ديكارت : "الناس مسوقون برغبة في الاستطلاع عمياء، حتى أنهم يوجهون أذهانهم في طرق مجهولة". (Descartes, 2000)

وحين يعرف ديكارت المنهج يقول : "أنا أعني بالمنهج قواعد مؤكدة بسيطة إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة استطاع أن يصل بذهنه إلى اليقين". إذن النهج هو الموجه الصادق للعقل إذ يعتمد فيه على طريقتين في التفكير هما "الحدس والاستنباط" ويقصد ديكارت بالحدس الفكرة المتينة التي تقوم في ذهن خالص منتبه وتصدر عن نور العقل وحده، أما الاستنباط فيعبر عنه بأنه فعل ذهني بواسطته نستخلص من شيء لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم منها".(Descartes, 2000)

هاتان الطريقتان في التفكير يحدد بهما ديكارت قواعد المنهج والتي أهمها قواعد الوضوح والبداهة القائلة : "إني لا أتلقى على الاطلاق شيئا على أنه حق ما لم أتبين البداهة أنه كذلك في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتميز يزول معها كل شيء".

وتتضح أهمية المنهج أكثر عندما نقارنه بخطوات البحث العلمي الأخرى، حيث يتضح جليا أنه الأداة الموجهة لكل ما يرتبط بالعلم. وفي ما يلي نستعرض مقارنات بين أهمية المنهج وباقي خطوات البحث العلمي:

1.3 من يسبق الآخر: المنهج أو الإشكالية ؟

من الأخطاء التقليدية القائمة اعتبار أن تحديد المنهج يخضع بالضرورة إلى طبيعة الظاهرة المدروسة، وعلى هذا الأساس فإن اختياره يكون بناء على الأهداف المتوخاة من دراسة ظاهرة معينة.

لكن الأخطاء الواردة في هذا الطرح تبرز بشكل واضح في عدة نقاط سنأتي على تفصيلها.

المنهج وفق هذا المنظور هو مجموعة الخطوات التي تؤدي إلى حل إشكالية معينة والوصول إلى نتائج بخصوصها. وهذا خطأ من الناحية المعرفية، لأن المنهج هو طريقة تفكير، وبالتالي طريقة النظر إلى الظاهرة في حد ذاتها. على هذا الأساس المنهج هو ما يعطيك أدوات الأشكلة التي تعني النظر بمنظار معين. ومن خلال المنهج نبني الإشكالية، وينعكس البناء على عملية تفكيك البناء في حد ذاته.

والمنهج الذي سمح لنا ببناء الإشكالية بالنظر إلى منطقية التفكير وترابط خطواته هو الذي سيعطينا الأبعاد الإجرائية لتفكيك ما تم بناؤه في مرحلة صياغة الإشكالية.

إن الانطلاق الخاطئ هو من المشكلات البحثية التي تعد مواقف مستعصية للفهم من النظرة الأولى، لكن مجرد أشكلتها وبنائها هو انطلاق من مسار فكري معين هو الذي يحول المشكلة إلى إشكالية وبناء معرفي.

ينطلق ديكارت من فكرة الشك، والشك في حد ذاته مراجعة للمسلمات والاعتقاد بوجود أو إمكانية تفسير مختلف عن تلك القائمة، وهذا في حد ذاته منهج في التفكير يعيد رسم الظاهرة وتشكيلها وبالتالي فإن المنهج يسبق طرح الإشكالية، بل يرسم مسار بنائها وصياغتها.

2.3 هل النظرية هي من تعطي منهجية البحث؟

تُعرفُ النظريّة لغةً: بأنّها مصطلح مشتق من الكلمة الثلاثيّة نَظَرَ، ومعناها التأمّل أثناء التفكير بشيء ما، (ابن منظور، 1994) أمّا اصطلاحاً: فتُعرف بقواعد ومبادئ تُستخدمُ لوصفِ شيء ما، سواء أكان علمياً، أم فلسفياً، أم معرفياً، أم أدبياً، وقد تثبتُ هذه النظرية حقيقة معيّنة، أو تساهمُ في بناءِ فكر جديد، (Grawitz, 1993)

يشير مفهوم النظرية العلمية من الناحية الاصطلاحية إلى جملة القضايا والافتراضات المترابطة فيما بينها التي تحاكي سبب الظاهرة من حيث الوجود أو العدم"(Brenner, 2000, p17)

على هذا الأساس فإن النظرية هي دراسة لموضوع معين دراسة عقلانيّة ومنطقيّة، من أجل استنتاجِ مجموعة من الخلُاصات والنتائج التي تساهمُ في تعزيز الفكرة الرئيسيّة التي تُبنى عليها النظريّة.

بناء على ما سبق هل يمكن تصور أن النظرية هي من تمنحنا المنهج الذي نستخدمه في تناول ظاهرة معينة. لكن لو كان الأمر على هذا النحو فهذا يعني أن النظرية تأسست من رؤية اعتباطية، ثم تشكلت واتسقت لتمنحنا إجراءات عملية؟

هذه الفكرة يصعب تقبلها، ذلك أن النظرية في حد ذاتها لا يمكنها أن تنفصل عن طريقة بنائها وبالتالي عن منهجية ومسار معين في تشكيلها.

النظرية هي في حد ذاتها بناء حيث تنطلق من افتراضات لتشكل تصورات ورؤى لإثبات صحة تلك الافتراضات أو نفيها، وفي حال تم إثباتها ولو مؤقتا يتم ترقية تلك الافتراضات لتصبح نظرية متكاملة.

تأسيسا على ذلك تبنى النظرية بمنهجية محددة في التفكير، والنّظريات لا تتمايز في طبيعة التفسير الذي تقدمه للظواهر، بقدر ما تتمايز بطريقة التفكير في الظواهر في حد ذاتها.

والتباين في طريقة التفكير في الظواهر هو تباين في منهجية التعامل مع المشكلات العلمية لترقيتها إلى مستوى الأشكلة العلمية. لذا فإنّ المنهج يسبق النظرية بل هو من يشكلها.

رفض بوبر فكرة أن النظريات العلمية تأتي مباشرة من الملاحظة، حيث أن الخيال، حسب قوله، يلعب دورًا مهمًا في تطورها. الشيء المهم لضمان علمية النظريات هو فقط أنها قابلة للدحض. (بوبر، 2006)

3.3 من الذي يحدد الآخرين الفرضية والمنهج؟

المتعارف عليه، هو أن وظيفة الفرضية هي تحديد المنهج الذي سيتم اعتماده في البحث. وبالتالي مجموع الخطوات التي سيتم اعتمادها لإثبات أو تفنيد تلك الفرضيات.

لكن من السذاجة الاعتقاد أن الفرضيات تشكلت بطريقة تلقائية واستولت على قيادة دفة البحث بتحديدها لما يجب القيام به من إجراءات أو خطوات. فالفرضيّة هي حل مسبق وهذا الحل ناجم بالضرورة عن طريقة تفكير ومنهج في ربط الأفكار وتتابعها لتشكل ذلك

الحل وذلك التفسير. وكمثال على ذلك : الاعتماد على منهج تاريخي في التفكير، هو من يرسم ملامح الإشكالية، وهو من يعطي تفسيرات أولية نابعة من طريقة الأشكلة والنظر إلى الظواهر، لهذا فالمنهج هو من يحدد الفرضية وهو من يطلقها، ليستعيدها مجددا في مرحلة لاحقة.

إن الدائرة المغلقة بين المنهج و الظّاهرة والفرضية، يطرح إشكالية تقدم العلم. ذلك أن المنهج هو من قام بالأشكلة وهو من اقترح الفرضية، وهو ما سيجعلنا نقع في فخ البحث من أجل التبرير لا من أجل الاكتشاف؟، وهي المعضلة الحقيقية التي تدفع دوما إلى التفكير في الفكرة التي طرحها كارل بوبر وهي أن الهدف الأساسي للبحث هو التفنيد وليس الإثبات حتى لا نقع في إشكالية كبح مجال تقدم العلم.

4.3 ما علاقة البراديغم بالمنهج؟

يمكن ترجمة مصطلح البراديغم بأنه (النموذج الفكري) أو (النموذج الإدراكي) أو (الإطار النظري). وقد ظهرت هذه الكلمة منذ أواخر الستينيات من القرن العشرين في اللغة الإنجليزية بمفهوم جديد يشير إلى نمط تفكير ضمن أي تخصص علمي أو موضوع متصل بنظرية المعرفة «الإبستيمولوجيا». (توماس كون، 2016)

فكرة النموذج في حد ذاتها تشير إلى الانتظام في النظر إلى الظواهر بالتركيز على جوانب محددة أو جزئيات معينة. والانتظام في حد ذاته إقرار بمنهج معين في صياغة الظواهر وأشكلتها. وعلى هذا الأساس المنهج هو من يشكل البراديغم من خلال تميزه بالانتظام المختلف عن بقية أنواع الانتظام.

يعترف محمود سعد في مؤلفه حول « البراديغمات المسيطرة في علوم الإعلام والاتصال»، أن : «علم الاتصال، هو علم متعدد الأنظمة، وكل نظام يؤدي إلى نموذجه الإرشادي الخاص به» . (حسين سعد، 2011)

4. العلوم التركيبية ومعضلة قصور المنهج:

إن اكتشاف وتحديد وصياغة الظاهرة يتطلب وجودا سابق لمنهج في التفكير سيستدعي القيام بعملية التفكيك في الاتجاه المعاكس من عملية البناء التي تمت عند صياغة الظاهرة. وهذا في حد ذاته يظهر بأن المنهج يكسب مشروعيته في الاتجاهين.

بيد أنه يستحيل امتلاك منهج أو طريقة في التفكير إذا لم يحدث نوع من التراكم المعرفي الذي يؤدي إلى ارتسام تفصيلات ذهنية عن مواضيع في مجال معرفي وعلمي محدد. هذا الارتسام يحدث بالتراكم الذي يؤدي في مرحلة ما إلى رسم خرائط ترابط وتشابك بين مكونات المعرفة، وهو ما يخلق المنهج لاحقا.

يصعب أو يستحيل اكتساب المنهج أو تحقيق تراكم معرفي يؤدي إلى تشكل المنهج من علم تركيبي دون العودة التفصيلية إلى المكونات المشكلة لذلك العلم. والقصور في العلوم المركبة عضوي وذاتي، لهذا يستحيل طرح إشكاليات جادة نابعة من العلم التركيبي في حد ذاته.

الأمر ينطبق للأسف على علوم الإعلام والاتصال، فهو علم تركيبي، لا يملك موضوعا، أو لنقل أن موضوعه مشتت بين مجالات معرفية متعددة، مما يجعل اكتسابه للموضوع مرتبطا دوما بمرجعية هذه المواضيع إلى العلوم المتأصلة فيه.

ومن المراجعات السابقة يمكن التأكد من أن كل أو الغالبية العظمى للنظريات التي أطلقت في ليست نابعة من علوم الإعلام والاتصال وإنما من تخصصات معرفية أخرى.

وعلوم الإعلام والاتصال تقوم فقط بالتقاط تلك النظريات وتصفيفها لتعطي لنا تصورات متعددة مرسومة في اتجاه محدد.

لهذا يجد الباحثون الجدد في العلوم التركيبية صعوبة في طرح إشكاليات جادة، وبالتالي فإن المطلوب منهم هو اكتساب المحتوى المعرفي المتخصص، وإلا لن يستطيعوا اكتساب منهج علمي يتيح لهم طرح إشكاليات جادة قابلة للدراسة وبالتالي تؤدي إلى الإضافة المعرفية.

فالانحصار في التركيب بدل الغوص في المكون الأصيل سيجعل كل ما يطرح سطحيا للغاية. والانطلاق من المشارب المعرفية الأصلية بشكل مباشر، يتيح اكتساب منهج علمي قادر على الأشكلة، أما الانطلاق من الأبعاد التركيبية فسيؤدي دوما إلى العودة إلى الأصول المعرفية بشكل سطحي وعارض لا يتيح ذلك العمق المطلوب.

5. الخلاصة:

حاولت هذه الدراسة إبراز أهمية المنهج في تشكل أي علم من العلوم وكيف أن عملية استعارة المنهج تنقل العلم الجديد من مساحة التميز إلى مساحة النقل وبالتالي الانحصار في التركيب بدل الغوص في المكون الأصيل وهو ما سيجعل كل ما يطرح سطحيا للغاية. لكن يبقى التأكيد دوما على أن التوجه العام في مختلف العلوم الإنسانية هو إلى ما يسمى الدراسات البينية،

وإذا كان تاريخ العلوم لم يشهد الاندماج بين مختلف الحقول المعرفيّة، كما يرى عبد الله الزين الحيدري (الحيدري، 2017) لكن العلوم عبر تاريخها لم تعمل في الانغلاق، فعلوم اللّغة تواصلت في ما بينها، ولم تعمل العلوم في الانعزال التام، وإلاّ ما كانت تطوّرت من عصور ما قبل التاريخ إلى الآن، وحقّقت مراتب من المعرفة لفهم العالم. ولكنها في المقابل لم تندمج بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، لمواجهة رهانات الفكر وإدراك مظاهر التعقيد في الواقع.

6. المراجع :

- كارل بوبر، منطق البحث العلمي، ترجمة محمد البغدادي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2006.
- توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة 2016.
- كارل بوبر، منطق البحث العلمي، ترجمة محمد البغدادي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2006.
- حسين سعد، البراديغمات المسيطرة في علوم الإعلام والاتصال وإشكالياتها المعرفية، مساهمة في الحلقة البحثية بعنوان: "البراديغمات العلمية" لطالب الدكتوراه اللبنانية، 19 مارس 2011.
- ابن منظور، لسان العرب
- René Descartes, Les principes de la philosophie, Paléo, 2000.
- Grawitz, Madelaine, methodes des sciences sociales, Dalloz, Paris, 1993.